المحاضرة رقم (08)

الأدب السياسي في العصر العباسي

مفتتح

تنوعت الرؤى النقدية تجاه مدائح المتنبي وهجائياته للسلطة، فقد اتهمه البعض بالنفاق نتيجة تغير مواقفه، فيما جعله آخرون شاعرا فذا لولاه ما كان لسيف الدولة ذكر ولا مكانة، بينما حط آخرون من قدره طالما أنه لم يبلغ مكانته لولا عناية سيف الدولة به، هذه الآراء، رغم اختلافها، تتفق على أن المتنبي شاعر تجاوز العصور، بقدر ما تؤكد على «أن أروع شعر المتنبي وأشده استقلالا بذاته هو ما قاله المتنبي في سيف الدولة.. فله ما يزيد عن ثمانين قصيدة ومقطعة.. وليس لشاعر آخر ولا لأبي الطيب نفسه شعر بهذا القدر في ممدوح آخر.»[1]

1- مدح السلطة

يرجع انقطاع المتنبي إلى سيف الدولة الحمداني لمدة تسع سنوات إلى دوافع سياسية لعل أبرزها استكمال أحدهما لما يفتقر إليه من خلال الآخر، فالمتنبي يمتلك السلطة (الشعر) ويفتقر للملك، بينما يمتلك سيف الدولة الملك ويفتقر للسطة (الشعر)، وهو الدافع نفسه وراء تشرب المتنبي لروح ممدوحه باعتباره رمزا لصورة الملك؛ الصورة التي طالما طمح إليها المتنبي، فتماهى فيها بحيث لم يعد في وسعه رؤية غيرها؛ صورة نفسه المنتفخة وهي تطمح للمعالي، مما أظهر مدحه للسلطة بمثابة مرآة يرى نفسه من خلالها، فمدحه لنفسه بجانب مدحه لممدوحه، وفخر بنفسه بجانب فخره بالأمير، ما هو في الحقيقة إلا مدح وفخر للسلطة التي افتقدها وحاول امتلاكها: **(الطويل)**

خليليّ إنّي لا أرى غيرَ شاعرٍ فلمْ منهمُ الدّعوى ومنّي القصائدُ
فلا تعجبَا إنّ السيوف كثيرةٌ ولكنّ سيفَ الدولةِ اليومَ واحدُ[2]

1)- أحمد سويلم، ***الشعراء والسلطة***، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط1، 1424هـ -2003م، ص60.
2)- المتنبي، ***ديوانه***، دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، (د.ط)،1403هـ -1983م، ص319.

على أن صلة الشعراء بالملوك تكون دائما محكومة بتوتر شديد، ومرده إلى السلطة نفسها المتنازعة بين الطرفين؛ فالمُلْك يحرص على سلطته السياسية، والشعر يحرص على سلطته الأدبية، مما يفضي إلى نهايات وخيمة كما ذكرته كتب التراجم والسير والطبقات، وقد عقد صاحب العمدة فصلا بعنوان منافع الشعر ومضاره[3]، حيث ساق فيه أخبار من هلك من الشعراء بسبب اتصالهم بالسلطة منذ الجاهلية إلى العصر العباسي، ومنهم: طرفة بن العبد الذي هجا الملك عمرو بن هند فقتله، ودعبل الخزاعي هجّاء الملوك خاصة الخليفة المعتصم الذي قتله، وسديف الذي طعن في دولة بني العباس فأمر الخليفة المنصور بدفنه حيا، والمتنبي الذي قتله هجاؤه ضبة بن يزيد الأسدي العيني، وغيره كثير ممن اتصل بأسباب سياسية مباشرة، أو غير مباشرة تمثلت في المساس بهيبة الحكم، أو التنازع الأدبي غير الظاهر على المكانة، أو النفوذ والسلطان، إذ يمكن للمشهد التالي أن يبيّن المقدار الذي بلغه التوتر بين الشعر والسياسة في بلاطات الحكم.

تقوم صلة المتنبي بسيف الدولة على عنصرين هما: الحرص على رضا الأمير، والحذر من العواقب، يمكن تبينهما قي قصيدته التي ابتدأها بالتظلم من تقصير الأمير تجاهه: (البسيط)

واحرَّ قلباهُ ممَّنْ قلبُهُ شَبِمُ ومَنْ بِجِسْمي وَحالي عِنْدَهُ سَقَمُ

حيث عرّض فيها بأبي فراس الحمداني، الذي لم يقنع بتأليب سيف الدولة ضده، بل تعداه إلى توقيفه كلما أنشد بيتا من قصيدته، محاولا الكشف عن عيوبها بما فيها سرقاته الشعرية، والمتنبي غير عابئ بحركاته الماكرة، ولما اشتد عليه الأمر، أجابه مستنكرا بنبرة كلّها سخرية واستهزاء، وذلك في قوله: (البسيط)

أعيذُها نَظراتٍ مِنْكَ صادِقةً أنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

ثم واجه خصومه بطريقته المتعالية، التي تحرص على إظهاره بصورة ملك تربع بما أوتي من مقدرة أدبية وبلاغية واسعتين على عرش السيادة الشعرية، فدفعهم إلى التميز غضبا، وهمّوا جميعا بقتله في حضرة الأمير: (البسيط)

3)- ابن رشيق، ***العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده***، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق- سوريا، ط5، 1401هـ -1981م،1/ 72- 75.

سيَعْلمُ الجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسَنا بأنَّني خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

أنا الذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبي وأسْمَعَتْ كلِماتي مَنْ بِهِ صَمَمُ

لكنه ظلّ ينشد شعره، وأبو فراس يستهجن ما يقوله، حتى ضجر سيف الدولة، ليس لكثرة الجدل واللغط في مجلسه، بل لشعوره باستلاب مكانته على يد شاعر من شعراء بلاطه، وذلك حينما بلغ المتنبي إلى قوله: «بأنَّني خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ»، فرماه بدواة شدخت رأسه، بينما تابع المتنبي إنشاده متألما: (البسيط)

إنْ كانَ سَرَّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا فما لِجُرْحٍ إذَا أرْضاكُمُ ألمُ[4]

فأعجب سيف الدولة بالبيت، ورضي عنه، وقبل رأسه، وقربه إليه في مجلسه، وأجازه بألف دينار، ثم أتبعها بأخرى، رغم تعالي أصوات الخصوم الساخطة، وعلى رأسهم ابن عمه أبي فراس الحمداني.

2- سلطة المدح

عد التجاء المتنبي لكافور الإخشيدي رد فعل عنيف تجاه الصد الذي مني به طموحه عند سيف الدولة، فاتجه إلى مصر استكمالا لما افتقرت إليه صورته الكاملة، متوهما أن أمير مصر لديه الملك الذي يطمح إليه المتنبي، بينما يمتلك هو السلطة تمثلت في صيته الشعري الواسع في تخليد الملك أطمعت كافورا لحيازتها، غير أن ملك الإخشيدي كان على العكس تماما مما كان عليه ملك سيف الدولة، كما أن سلطته كانت أهش من أن يطمح إليها المتنبي، فغدا مدحه لأمير مصر هجاء لما آلت إليه صورة الملك، بقدر ما كان افتخار المتنبي بنفسه انتصارا لسلطة الشعر و إعلاء لصورتها: **(الطويل)**

وتَعْذُلِني فيكَ القَوافي وَ هِمَّتي كأنّي بمدحٍ قبلَ مَدْحِكَ مُذْنِبُ[5]

وإذا كان المتنبي معجبا بأمير حلب، صادقا بإعجابه به، حريصا على تسجيل سياساته، ومعاركه وانتصاراته في مدائح تعد من أجود قصائده فنيا؛ حيث تجتمع فيها الحكمة والفلسفة والبيان واللغة والصورة، إلى جانب المعنى الإنساني العام، فهو في مصر

4)- المتنبي، ***ديوانه***، ص331- 333.
- الشّبم: البارد. الشحم والورم: مثل لما يتشابه ظاهره وتختلف حقيقته.
5)- ***ديوان المتنبي***، ص470.

يكشف عن وجه آخر يظهره بصورة شاعر خاصم أمير حلب بعدما تشرب روحه وثقافته، ولجأ إلى ممدوح آخر أقل قيمة وقدرة على فهم الشعر وتذوقه، مستغلا براعته التي سهلت له الإجادة في مجال التظاهر بالإعجاب لحاكم هو كافور الإخشيدي طلبا للعظمة المتمثلة في السلطان، والقوة، والمال، والثورة، والعبقرية الشعرية، كما كان مدحه للعظماء في خدمة العظمة، وهو ما دفعه إلى التسلح بسلاح الداعية الإسماعيلي[6]، علاوة على تسلحه بسلاح الشعر، وسحر العبقرية[7].

مدح المتنبي كافورا بثماني قصائد، وصفه خلالها بالعظمة والرفعة والجود والأفعال الحسنة، طمعا في أن ينصبه واليا على إحدى ولاياته، لكن يبدو أن كافورا كان مدركا لهدف المتنبي الذي كشف عن نفاق سياسي، مما دفعه إلى مماطلته استزادة لمدائحه التي أعلت مكانته، ورسخت ملكه في نظر العامة والطامعين، فأفاق المتنبي من وهمه وأدرك بفطنته أنه مراقب ومحاصر، فيتحين الفرصة للهرب ليلة العيد، وقبل أن يتم له ذلك، هجاه بقصيدة: (البسيط)

عيدٌ بِأيَّةِ حالٍ عُدْتَ يا عيدُ بِما مَضَى أمْ لِأمْرٍ فيكَ تَجْديدُ

أمّا الأحِبَّةُ فَالبَيْداءُ دُونَهُمُ فليْتَ دُونَكَ بيدًا دُونَها بِيدُ

وبعد تصوير حزنه الناجم عن هذا الفراق نقض مدائحه كلها لكافور، بهجاء كله سخط لأنه لم يحقق له آماله التي تمناها وباءت بالفشل: (البسيط)

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلاّ وَالعَصَا مَعَهُ إنَّ العَبيدَ لأنْجاسٌ مَناكيدُ[8]

اتسم هجاء المتنبي لكافور بالسخرية سعيا إلى الحط من مكانته؛ لأنه يصدر عن نفس أجهض أملها نتيجة المماطلة والتسويف، فكأنه كان مدفوعا بطمعه إلى مدحه لعله يحظى منه بما يريد، ولما طال انتظاره وتجلت له صورة ممدوحه على حقيقتها بلا مبالغة: عبد أسود، لم يرث من آبائه مكرمة ولا مجدا، وهو مملوك اشتري بثمن بخس، حقير مشقوق المشفر، انقلب ضده فاشتفى منه بالهجاء اللاذع.

---

6)- الإسماعيلية: إحدى فرق الشيعة، وثاني أكبرها بعد الإثني عشرية.

7)- حنّا الفاخوري، ***الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم***، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط1، 1986م، ص785.

8)- ***ديوان المتنبي***، ص506- 507.

- المناكيد: (ج) منكود؛ وهو قليل الخير. يعني لا يصلح إلا على الضرب والإهانة.

وعموما يمكن إيجاز خصائص المديح عند المتنبي في النقط الآتية:

1- أكثر المتنبي من المدح للوصول إلى هدفه، ولكنه لم يعمد إلى المداراة فكانت شخصيته القوية مهيمنة.

2- عمد إلى المعاني القديمة وتناولها بملء نفسه وكامل روحه، وامتزج بها امتزاجا وكون من مجموعها كيانا متنبئيا هو خير ما يتصوره ويطمح إليه، وراح يفجر هذا الكيان من باطنه، ويلقيه على الممدوح.

3- أسلوبه في المدح هو الأسلوب الرسمي القديم، لا ينصرف عنه إلا إذا اشتد هياجه النفسي، أو تغلبت عليه فكرة عامة أو حكمة.

4- قبل اتصال الشاعر بسيف الدولة كان مدحه تمجيدا لنفسه أكثر مما كان تمجيدا للغير، وبعد اتصاله بسيف الدولة جعل شخصية الممدوح أكثر بروزا، ولما غادر بلاطه غلبت على شعره نزعة الألم.

5- في مدح المتنبي نزعة باطنية إسماعيلية، وتفلسف، وعلم لغة وبيان، وروس اجتماعية وسياسية وأخلاقية، وتعجيز للعلماء والشعراء والفلاسفة، والمتنبي رائع في تفكيره، مؤثر بقوة شخصيته وعمق نظره، مُجلٍّ في بيانه[9].

9)- حنّا الفاخوري، ***الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم***، ص785.